الفصل العاشر

جيرنتيون [1]

ويتضح لنا تشعب القيم العديدة فى القصيدة التى أطلق عليها إليوت اسم « جيرنتيون » أى الرجل الهرم . وجيرنتيون هذا قد فقد متعة الحياة و بهجتها وانزوى فى ركن من أركان حجرته يستمع إلى صبى صغير يقرأ له كل ما يهمه من أمور وأخبار لأنه ضرير . وفى هذه القصيدة أيضاً كما رأينا فى « بروفروك » يتخذ إليوت المنولوج أساساً لمنهاجه فتنساب المشاعر والذكريات فى تلقائية محببة نستشف من ورائها كل ما يدور بخلد هذا العجوز المنطوى على نفسه :

« إننى أحياها هنا كرجل مسن فى شهر من شهور الجفاف
يقرأ لى صبى ، وأنتظر هطول الأمطار .
لم يكن لى نصيب أن أختبر حمية المداخل
والمعارك حيث الأمطار الدافئة
فلم أركض فى المستنقعات المالحة رافعاً سيفى ،
وقد نال منى الذباب »
إن منزلى قديم متداعى [2]
إن هذا المنزل قد تداعى كتلك المدنية الحديثة التى يحيا جيرنتيون فى وسطها ،

---

(١) "Gerontion"

(٢) "Here I am, an old man in a dry month,
Being read to by a boy, waiting for rain.
I was neither at the hot gates
Nor fought in the warm rain
Nor knee deep in the salt marsh, heaving a cutlass,
Bitten by flies, fought.
My house is a decayed house."
Ibid., "Gerontion", p. 37.

هى الأخرى آخذه فى الاضمحلال والتداعى . إن إليوت بعد أن ركز اهتمامه على ضعف القيمة الفنية فى المجتمع الحديث كما رأينا فى قصيدة « بيربانك ومعه بايديكار : بليشتان ومعه سيجارته » قد تحول فى « جيرونتيون » إلى الحديث عن اضمحلال القيم الروحية فى مجتمعنا الحاضر . إنه هنا يسخر من جيرنتيون الذى قضى حياة كلها فتور فلم يعرف للقيم الأخلاقية أى معنى أو مغزى ، كما أن خبرته محدودة للغاية فلم يشترك فى الحروب والمعارك . فهو والحال كذلك لم يذق طعم الحياة العملية بحلوها ومرها : هذا بالإضافة إلى أن القيم العليا كانت عارضة بالنسبة له ، فهو لا يعرف عن كنهها شيئاً ، بل وجه اهتمامه إلى محيطه الضيق الذى يحيا فى وسطه ، وهى البيئة المحدودة التى حوله والتى تتكون من :

« ماعز يسعل أثناء الليل فى الحقل المرتفع ؛
وصخور وطحالب ونباتات طفيلية وحديد .
وسيدة تعمل فى المطبخ ، وتعد الشاى .
وتعطس فى الماء ، وتنظف البالوعة النكدة »[1] .

هذه هى العناصر التى تكون فى مجموعها العالم الصغير الذى يعيش فيه جيرنتيون ، وهو عالم يتسم بطابع العزلة والقيم العارضة المتصارعة التى تولد الحيرة النفسية وعدم الاستقرار ، كما يتسم أيضاً بالفتور العاطفى والجدب الانفعالى . تلك هى مكونات الحياة السلبية التى يحياها جيرنتيون . وفى وسط هذا القحط المخيم على كل الأرجاء يثوى جيرنتيون فى ركن من أركان حجرته وينتظر هطول الأمطار فهذا هو كل ما فى مقدوره أن يقدم عليه . إن هى إلا حياة جافة قد خلت خلواً تاماً من الفكرة الأصيلة والعاطفة الأمينة .

---

(١) "The goat coughs at night in the field overhead;
Rocks, moss, stonecrop, iron, merds.
The woman keeps the kitchen, makes tea,
Sneezes at evening, poking the peevish gutter."
Ibid

وبعد أن استقر صاحبنا فى زاوية الحجرة أخذ الفتى الصغير يطالع له بعض مقتطفات من كتب التاريخ عن سير الأبطال والأحداث العظيمة فى الماضى ، فاكتسب بذلك حصيلة فكرية وثروة عقلية بعد أن اطلع على نفائس الماضى بتراثه العظيم :

« وبعد كل هذه المعرفة ، أى عذر تلتمسه ؟ عليك أن تفكر الآن
فى التاريخ وفى دهاء فروعه ، وفى تدابيره
ونتائجه ، فقد يخدعك مخادع بطموحه النادر
ويرشدك بوحى من خيلائه . . .
أذكر جيداً أننا لن ننجح بواسطة الخرف أو الشجاعة .
فنحن نعلى من شأن الرذائل ونمجدها على أنها أعمال بطولية .
ونقحم علينا الفضائل خوفاً من الجرائم الفاضحة .
هذه العبرات قد تساقطت من شجرة الحنق »[1].

بعد هذا الخداع الحسى والنفسى بل والعقلى أيضاً ، ذلك الخداع الذى يحيا فى وسطه الكثير من الباحثين الذين تقودهم الرغبة الجامحة نحو المجد والعظمة والتيه والكبرياء ، علينا أن ندقق جيداً فيما عسى أن نختاره . هذا إلى أن فرص الخير والشر وحالات العقاب والثواب والنظرة الصحيحة المدققة لكل ما يعترضنا من أمور ؛ الفاحصة لكل ما يدور بخلدنا وما يعترض طريقنا ، تلك النظرة الموضوعية البعيدة عن الخرف الشديد من المجتمع والرأى العام ، هذه كلها

---

(١) "After such knowledge, what forgiveness ? Think now
History has many cunning passages, contrived corridors
And issues, deceives with whispering ambitions,
Guides us by vanities. .... Think
Neither fear nor courage saves us. Unnatural vices
Are fathered by our heroism. Virtues
Are forced upon us by our impudent crimes
These tears are shaken from the wrath-bearing tree."
Ibid., p. 38.

قد تتبعها إليوت إلى أن وصل إلى جذورها الأولى التى تمركزت فى « شجرة الحنق » وهى الشجرة التى أكل منها آدم فجلب الشقاء على البشرية جمعاء ، فمنها تصبب العرق، ومنها أذرفت الدموع فى سخاء .

ولا يعنى إليوت من وراء إشارته إلى شجرة آدم فى البيت الأخير أنه يؤمن بالحتمية فالأبيات السابقة بل والقصيدة كلها توضح لنا إيمانه العميق بحرية الاختيار . ولعلنا نستشف من وراء ذلك نظرته الإيجابية إلى التاريخ الذى اتخذه فى الأبيات السالفة مثالاً لاتجاهه الموضوعى فى النقد ، فهو يهدف إلى إعادة تقييم التاريخ على أسس سليمة بعيدة عن النزوات الشخصية والاتجاهات الفردية . وهو يعترف أنه من العسير علينا أن نصل إلى نتيجة سريعة فى هذا المضمار ، إذ يقول :

« تذكر أخيراً
أننا لم نصل إلى نتيجة بعد ، حينما أنذوى
فى بيتى الذى استأجرته . وأخيراً تذكر أيضاً
أننى لم أقدم لك هذا العرض دون غاية فى نفسى
فلم تجلبه لك
الشياطين الجهنمية .
سأريحك من عناء التفكير فى هذا الأمر بكل ما أوتيت
من صدق وأمانة .
فقد كنتُ قريباً من قلبك والآن طرحت خارجاً
ففقدت جمال (الإيمان) لرعبك وفزعك وكثرة فضولك .
وهكذا تخليت عن عاطفتى : ولم أحتفظ بها
طالما أن كل شىء بالنسبة لك مآله إلى الفساد ؟
لقد فقدت قدرتى على النظر والشم والسمع والذوق واللمس :

فكيف السبيل إلى الانتفاع بها لأقرب منك ثانية »[١] ؟

يفرّق هنا إليوت بين سبل الإيمان قديماً فى بساطتها وتسليم أهلها لاستجاباتهم الروحية وبين الإيمان فى عصرنا الحاضر وإخضاعه للمقدمات والفروض والحجج والقضايا المنطقية بل والقوانين والمناهج العلمية ، وبهذا ضاع رونقه الذى تجلى فى بساطته . ونتج عن ذلك وجود الرعب الذى أصاب الكثيرين بعد أن فقدوا الإحساس بعظمة الإيمان والتصديق بجبروته . ويرى إليوت أيضاً أنه من العسير علينا أن ندخله فى قلوب النفوس الضالة طالما أن حواسنا قد شوهتها المدنية الحديثة . وتربعت على عروش قلوبنا اللذة الوقتية العارمة ، وسيطرت على عقولنا الاتجاهات المادية الآلية . فهذه الحواس التى أشار إليها إليوت والتى خضعت لكل هذه الظروف ، قد أصبحت فى نظره فى حيز العدم . إذ كيف السبيل إلى قلب لا يحس ؟ لقد انعدمت الرغبة فى التسليم الجميل بقدرة الخالق جل شأنه ، فكان الفزع ، وكانت الحيرة النفسية ، والشطط الذهنى ، وبلبلة الأفكار ، وفساد الحياة وكل ما يتصل بها .

إن هذا الشعاع الوضاء الذى أضاء حياة القدماء بمدنياتهم العظيمة قد ضاع الآن وسط متاهات الإلحاد وموجات الإنحلال والتفكك التى تدعها تمر دون

---

(١)

"Think at last
We have not reached conclusion, when I
Stiffen in a rented house. Think at last
I have not made this show purposelessly
And it is not by any concitation
Of the backward devils.
I would meet you upon this honestly.
I that was near your heart was removed therefrom
To lose beauty in terror, terror in inquisition.
I have lost my passion : why should I need to keep it
Since what is kept must be adulterated ?
I have lost my sight, smell, hearning, taste and touch :
How should I use them for your closer contact ?"
Ibid., pp. 38-39.

حكمة ولا روية . وتنحصر مأساة الإنسان فى عصرنا الحاضر فى سلبيته التى يمثلها چيرنتيون وفى ابتعاده عن مشاكل الحياة اللهم إلا ما يمسه شخصياً بطريق مباشر ، وفيما عدا ذلك فهو قابع فى عقر داره يتعلق بآمال واهية بعد أن ملأ قلبه اليأس .